الفصل الثالث

جوانبُ ابراهيم اليازجي

١ ـ آثاره

تولى كتابة جريدة « النجاح » لصاحبها يوسف الشلفون سنة ١٨٧٢ م وله فيها مقالات رائعة وبحوث مفيدة .

تولى تحرير مجلة « الطبيب » لمنشئها الدكتور جورج بوست الأميركى وساعده الطبيبان بشارة زلزل وخليل سعادة سنة ١٨٨٤ م ظهر منها مجلد واحد لسنة كاملة . وله فيها مقالات رائعة منها « الأمالى اللغوية » .

وظهرت باسمه واسم زميله الدكتور بشارة زلزل مجلة البيان سنة ١٨٩٧ م سنة واحدة .

أما مجلة « الضياء » التى أنشئت سنة١٨٩٨ م فقد ظهر منها ثمانية مجلدات ، وهى منار للآداب العربية والبحوث العلمية والمصطلحات اللغوية وانتقاداته من مثل « لغة الجرائد » وأغلاط المولدين وغيرهما . وله « العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب » وهو شرح لديوان المتنبى الذى كان قد بدأه والده الشيخ ناصيف فأتمه وتركه باسم والده احتراماً . طبع فى المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٨٨٢ م .

واختصر كتابى والده « نار القرى فى شرح جوف الفرا » فى النحو و« الجمانة فى شرح الخزانة » فى الصرف ، المطبعة الأدبية ببيروت .

واختصر كتاب « الجوهر الفرد » وشرحه بكتاب سماه « مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد » طبع فى المطبعة المخلصية بالحبرين الأحمر والأسود ثم فى مطبعة الآباء اليسوعيين .

obeikandl.com

وله تنقيح الكتاب المقدس للآباء اليسوعيين

وتنقيح « تاريخ بابل وأشور » لجميل نخلة المدور .

وتنقيح « كتاب عقود الدرر فى شرح شواهد المختصر » لشاهين عطية .

وتنقيح « دليل الهائم فى صناعة الناثر والناظم » جمعه شاكر البتلونى ، بإرشاده وضبطه بالحركات الكاملة وبوبه بأسلوب مدرسى .

وتنقيح « نفح الأزهار فى منتخبات الأشعار » جمعه شاكر البتلونى بإرشاده .

أما كتابه الذى استقل بتأليفه فهو : « نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد »[١] فى ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها ، وضعه فى ثلاثة أجزاء طبع منه جزءان والثالث لا يزال مخطوطاً .

وله « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » لا يزال مخطوطاً فى دير الآباء البولسيين فى حريصا — لبنان .

و « العقد » ديوان شعر وبعض رسائله المكتوبة بخطه الفارسى الجميل معظمها محفور على الزنك وبعضها بحروف مطبعية ، طبع فى البرازيل .

و « شرح المقامة البدوية » من كتاب مجمع البحرين نشره تلميذه الأستاذ جبران النحاس مطبوعاً فى الإسكندرية سنة ١٩٤٠

و « تنبيهات اليازجى على محيط البستانى » طبع فى مصر سنة ١٩٣٣ .

و « تنبيهات على لغة الجرائد » طبع فى بيروت .

٢ — الشاعر

إن من يطلع على آثار مترجمنا يرى أنه لم يقرض الشعر إلا فى إبان الشباب وميعته ، ولم يأخذ به نفسه إلا لماماً ، وكان يوليه من الإتقان والعناية ما كان يولى كل أعماله . ولعل انصرافه إلى النثر والتأنق فيه شغله عن الشعر ولولا ذلك لكان له فيه مقام ملحوظ . أولا يرضيك أن تسمع وصفه الخيال :

---

(١) راجع المنتخبات .

أما الكرى فسلوا عنه الخيال إذا وارته من ظلمات الليل أستار
تطوف من حولنا حتى يعود وقد أصابه من رشاش الدمع آثار

أولا يطربك ما قال ليكتب على عود :

وعود صفا الندمان قدماً بظله وما برحت تصبو إليه المجالس
تعشقه طير الأراكة أخضراً وحن إليه ريشه وهو يابس

إلى غير ذلك مما ننقله فى المنتخبات ، فالناظر فى شعره يتبين له أن هبة الشعر لم تند عنه ، فنظمه يبدو حلواً جميلاً مسبوكاً بلغة أنيقة متخيرة الألفاظ ، فقد جمع بين السهولة والمتانة ، والرقة والجزالة ، والقوة ، فمن قوله فى ساعة دقاقة :

ومحصية أعمارنا كلما انقضت لنا ساعة دقت لها جرس الحزن
فيابنت هذا الدهر سرت مسيره فهل أنت دون الناس منه على أمن ؟

ولا أظن إلا أنك واجد الوضوح والسلاسة فيما عرضت عليك من نظمه وما سأعرضه ؛ وله فى الشعر آراء كثيرة ، منها ذلك الذى نشرناه له فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، ومنها قوله :

« إن الوزن والتقفية لا يكفيان لصيرورة الكلام شعراً ما لم يكن مستوفياً للشرائط المعنوية ، حتى يكون شعراً بالمعنى قبل أن يكون شعراً باللفظ » وعلى الجملة فإننا نرى أن القريض الذى دعا إليه الشيخ هو الذى يخاطب القلب قبل العقل ، ويرفع النفس إلى انخطافة عقلية تحلق فى سماء الخيال طروبة مرحة ، وتبعث فيها رفعة أخلاق ، أو نزعة قومية ، ومحبة للوطن الذى لا يعتز إلا بنوابغه العباقرة الذين يمشون به قدماً إلى المثل الأعلى خلقاً ومحبة خالصة ، وأنفة تبعد الأبناء عن المفاسد والتفرقة .

٣ ــ الناثر

لعل اتجاه المترجم له إلى النثر كان عن قصد ، لأنه رأى فى معالجته خيراً لا يوفره الشعر ، فمن قراءة ما اتصل بنا من نثره نرى أسلوبه أسلوب ترسل مسجع فى

رسائله ومقدمات كتبه ومقالاته ، وأسلوبًا مرسلاً بعيداً كل البعد عن التعقيد والمعاظلة فى الكلام ، وله فيه استعارات غريبة لم تألفها الآداب العربية ، إلاّ أنها استعارات جديدة ، كما فى وصف الزهرة(١) وكلها أفادت اللغة وخدمت الأدب ، وعلى الجملة فهو صبور على قلمه ، خبير بمواقع الكلام ، عارف لفصاحته ، فلا يميل إلا إلى الصحيح الفصيح منه ، وما كان قريبًا من الفهم ، وإنك لتحس وأنت تقرؤه بجرس ألفاظه ، فجملته مصقولة تطرب الأذن وتجرى مع الطبع ، فيرتاح لها الخاطر ، فلا تعقيد ولا خشونة ، وتراه يربط الجمل بعضها ببعضها الآخر ، بعقل راجح ، ومنطق نير رزين راسخ ، فيؤلف جملة فيها تناسق وفيها وضوح وفيها بيان ، وقد رأى الأستاذ فؤاد أفرام البستانى(٢) فى نثره ما دعاه إلى القول : « لا إخال كاتبًا عربيًّا منذ عهد ابن المقفع وبديع الزمان ، أدرك ما أدركه اليازجى من سر اللفظة المفردة فى مجموع الجملة ، ومن سر الجملة فى الفقرة ، ومن سر الفقرة فى المقال ، هى نظرة الفنان الساهر على بناء الكل نتيجة لتساوق الأجزاء »(٣) وقد اختط للنثر خطة جديدة ، كما ألمعنا فيما تقدم ، وتميز عن معاصريه بأسلوبه الإنشائى الجامع بين المتانة والسهولة ، فضلا عن صحة العبارة(٤) ، وقد تأثر به كثير من متأدبى عصرنا الحاضر فحاولوا تقليده ، فاستقام أسلوبه لبعضهم وأخفق بعضهم الآخر . ومن قوله فى النثر : « إن النثر هو القالب الطبيعى للكلام الموضوع للإبانة عن المعانى التى تتمثّل فى النفس ، يتخاطب به العالم والجاهل والذكىّ والبليد والكاتب والأمىّ ، فوجب أن يكون بحيث تتفاهمه هذه الطبقات كلّها ، ويعبّر به عن المقاصد بأبين الصور وأوضحها وذلك يقضى ولا جرم بأن يستعمل لكلّ معنى اللفظ الموضوع له بحيث ينتقل من اللفظ إلى المعنى بدون واسطة » .

---

(١) راجع المنتخبات .

(٢) رئيس الجامعة اللبنانية وأديب لبنانى معروف .

(٣) العدد الممتاز من مجلة المسرة سنة ١٩٤٨ م .

(٤) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان ج ٤ ص ٢٦٦ .

٤ ـ الصحفي

نشأت الصحافة في لبنان وعليها طابع من الركاكة كان نهاية المطاف للانحطاط الأدبي في العصر العثماني فضلاً عن الأوضاع العامية وألفاظها ، فأنقذها من غثاثة عبارتها رجال أعلام كانوا في طليعة النهضة ، أمثال أحمد فارس الشدياق والمعلم بطرس البستاني وولده سليم ، وأديب إسحاق ، على أن ذلك النشاط كان بحاجة قصوى إلى من يسدد الأقلام ويسد الثلمات التي اتسعت في ما يكتبه الكتاب ، فانبرى له مترجمنا وكان أول ما أخذ نفسه به هو إصلاح لغة الجرائد ، ورأس الكتابة في جريدة « النجاح » سنة ١٨٧٢ م فظهر فيها من اقتداره ما بعدت معه شهرته وتجاوبت أصداؤه في العالم العربي ، وفي عام ١٨٨٤ م ، اتفق مع الدكتور بشارة زلزل والدكتور خليل سعادة فأصدر مجلة « الطبيب » التي أنشأها الدكتور جورج بوست الجراح المشهور في عهده . فنشر فيها مترجمنا المقالات اللغوية والأدبية مما أثبت علو كعبه في صناعة التحرير والتحبير ، ولم يطل زمن الاتفاق أكثر من عام واحد وتوقفت المجلة المذكورة ، وآنست مبادئ « الماسونية » قلبه فانخرط في سلك أعضائها وأعجب الناس بجرأته الأدبية ونزوعه إلى المبادئ الحرة والأخذ بكل جديد عن عقل وفهم وإدراك(١) .

وكانت نفسه تتوق إلى الصحافة التي كانت مرهقة بقيود ثقيلة في العهد العثماني ، فلم يجد مجالاً لأفكاره وآرائه الحرة ، فترك لبنان ووجهته مصر حيث الآداب العربية وحرية الأقلام تنشد كاتباً مثله . وفي عام ١٨٩٧ م أصدر بالاشتراك مع الدكتور بشارة زلزل مجلة « البيان » وأعد لها الآلات اللازمة يوم تعريجه على أوربا ، فجاءت المجلة والمطبعة مثالاً للإتقان ، وما لبثت المجلة أن احتجبت وافترق الشريكان(٢) .

---

(١) « النفائس » ص ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .

وفى سنة ١٨٩٨م استقل الشيخ إبراهيم بإنشاء مجلة « الضياء » التى اشتهرت بفصاحة العبارة ومتانة الأسلوب ، وبقى يصدرها إلى أن حال الداء دون متابعة الكتابة، فتركها فى نهاية عامها الثامن وهو ينوى العود إليها عند ما يبل من دائه ، وما كان يعلم رحمه الله أنه الداء الأخير ، ففاضت روحه فى « المطرية » من أعمال مصر سنة ١٩٠٦ م ونقل رفاته إلى بيروت وأودع جدث الرحمة فى محلة الزيتونة فى مقبرة الروم الكاثوليك فى القبر الذى ضم أباه وأخويه الشيخين حبيباً وخليلا .

٥ ــ العالم

قلنا إن مترجمنا نشأ على محبة العلم وميل شديد إلى البحث والتنقيب ، فانصرف إلى الدرس والمطالعة حتى أصبح دائرة معارف لغوية وعلمية ، ظهرت فى الأبحاث والمقالات العلمية التى دبجها يراعه فى مجلته « الضياء » وانتشرت له شهرة واسعة فى طول البلاد وعرضها ، واتصلت شهرته ببلاد الغرب فمنحه ملك أسوج ونروج نوطاً فى العلوم ، وعين عضواً فى الجمعية الفلكية فى باريس ، وأنفرس ، والسلفادور ، وله مباحثات شهيرة مع الفلكى الفرنسى المشهور فلاماريون ، وطبع ما عرضه على الجمعية الفلكية فى باريس فى مجلة أعمالها وفى مجلة « الكوزمس » المشهورة ، وذلك مما بعث به إلى المسيو كاميل فلاماريون الفلكى سنة ١٨٩٣ م وقد عربته جريدة الأحوال البيروتية[١] بعنوان « مأثرة علمية وطنية » .

قالت مجلة « الكوزمس » : ونزيد الآن أنه بينما كانت المس كلرك مهتمة بعرض هذه الطريقة كان عين ما خطر لها قد تمثل بفكر عالم عربى من ذوى الشهرة ، وقد أثبت ما بدا له من ذلك فى فقرة من رسالة عرضها علينا حضرة أغناطيوس الحمصى وهى هذه : قال اليازجى : « من المعلوم أن الشمس فى اختراقها الفضاء تقطع بنا مسافة ٢٤٠ مليون كيلومتر فى السنة ، وهى مسافة تبلغ ما يقرب من أربعة أخماس قطر فلك الأرض . وبما أن الشمس مستمرة

---

(١) « الأحوال البيروتية » العدد الصادر فى ١٩ كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٨٩٣ .

الاتجاه فى خط واحد فإن هذه المسافة تزداد فى كل سنة ضعفًا بحيث يمكن على توالى السنين أن تمتد إلى ما لا نهاية له . وإذا كان ذلك أفلا يمكن أن يستخدم فلك الشمس عينه عوض قطر فلك الأرض قاعدة لزوايا أبعاد النجوم ؟ فإن لم يكن ثمة ما يعترض صحة هذا الرأى كان فيه ولا ريب أعظم فائدة لسبر مسافات أبعد الأجرام الغائصة فى أعماق الفضاء » .

وذيلت جريدة « الأحوال » على هذه المقالة المطوّلة النفيسة بما عرضه اليازجى على فلاماريون فى ٢٧ تموز (يوليو) سنة ١٨٩٣ م قالت : « وهنا لا بأس أن نذكر للقراء أن هذه المسألة تعد من أعلى المسائل الفلكية وأعظمها فائدة بالقياس إلى ما يترتب عليها من النتائج المهمة فى مباحث هذا العلم ، لأن جلّ ما توصل إليه جهد العلماء إلى هذا التاريخ فى قياس أبعاد النجوم لم يتجاوز ثلاثين نجمًا من أقربها مسافة إلى العالم الشمسى ، فإذا اعتمدوا هذه الطريقة أمكنهم فى عدة سنوات أن يسبروا أبعاد عدد كبير من النجوم التى هى أبعد من ذلك بمسافات ، وعلى توالى الزمان يتهيأ لهم قياس مسافات أكثر الكواكب المنبثة فى الفضاء »[1] .

وكتب أيضًا فى مختلف أغراض الكيمياء والفيزياء والطبيعيات والطب ، فأظهر فى كل منها اطلاعًا واسعًا ونظراً ثاقبًا وفهمًا بعيداً لشوارد الأمور ودقائقها ، وقد نبه إلى فوائد علمية كان قد اكتشفها باختباره وانصبابه على المطالعة والبحث ، وقد رأيت بحثه فى الفلك[2] مما يشهد له بإلمام واسع لأحدث النظرات لمعارضته لمختلفها ، فأثبتت انقداح ذهنه الثاقب وفهمه الصائب ، وبالإضافة إلى ما تقدم فقد تصدى لمعضلة عجزت دونها قرائح نوابغ الأجيال الغابرة فى الرياضيات وهى تسبيع الدائرة فأتى فيها حلاً يلامس الصواب[3] .

(١) « تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم » لعيسى إسكندر المعلوف . مطبعة دير المخلص ١٩٤٥ ص ٦٧ — ٦٩ .

(٢) راجع المنتخبات .

(٣) وممن اشتغل فى تسبيع الدائرة وأتى بحل قريب من حل المترجم له الأستاذ هيكل صوايا البتغرينى اللبنانى .

obeikandi.com

إن بعض الأدباء ينكر على الشيخ إبراهيم لقب العالم ، لأنه لم ينصرف إلى مختبره ويقضى نهاره فيه وراء مجهره صارفًا لياليه فى مرصده ويخرج باكتشاف جديد ، على أن أولئك المنكرين على الشيخ هذه الصفة لم يقولوا لنا : لِمَ أناله ملك أسوج ونروج نوطًا فى العلوم ؟ ولِمَ انتدب عضواً فى الجمعية الملكية فى باريس وأنفرس والسلفادور ؟ وهل اطلع على الرسائل المتبادلة بين الشيخ وبين فلاماريون الفلكى الفرنسى الشهير ؟ ويكفى الشيخ شهرة وخلوداً أنه غاص إلى قلب اللغة العربية وحل عقدها وفكّ عقالها وأسلس قيادها لدقائق العلم ، فكان فى طليعة رجال عصره المثقفين ، فقد نقل علوم الغرب ونشرها بين أفراد أبناء العربية ، ووضع مسميات عربية فصيحة للمستحدثات الفرنجية منها البرق والبريد للتلغراف والبوسطة ، والمنطاد للبالون Ballon والبائنة Dot ، والبيئة Milieu والحاكى Phonograph ، والحساء Soup والحسر Myopie ، والحوذى Cocher ، والدرّاجة Bicyclette ، والمأساة tragédie ، والمجلة Revue .

وينقل لنا عيسى إسكندر المعلوف[1] أن الشيخ « صرف حياته فى بيروت بين المحابر والأقلام ، بأخلاق دمثة وآداب رفيعة ، زاهداً بدنياه ، حسن المحاضرة والأدب الرائع ، منقطعًا إلى عمله ، مبتعداً عن الظهور ، حتى إنه كان يحمر خجلاً إذا قيل له إنك عالم . وكان يأنف أن يخطو خطوة إلى جرّ مغنم ، فلما أنعم عليه السلطان العثمانى بالوسام المجيدى الثالث تحير وارتبك . ولما عقد مؤتمر العلوم والفنون بعناية الملك أوسكار الثانى ملك أسوج طلبت منه اللجنة مؤلفات والده ومؤلفاته فأرسلها ونال عليها من الملك المذكور وسام العلوم والفنون » .

ألا ليت شعرى لو نال أدباء عصرنا بعض ما ناله الشيخ إبراهيم أما كانوا يشمخون بأنوفهم كبراً ويمشون فى الأرض مرحًا ، ولا يكلمونك إلا من حالق؟ ألا فليتق الله المتقون ولننصف رجال العلم ، وهم فى قبورهم مرتاحون .

---

(١) « تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٦٩ .

٦ — الناقد

عرفنا من الفصول المتقدمة ما اجتمع للشيخ من علم صحيح ونظر ثاقب يريه أدق الهفوات فما أخطأ فى معرفة مواطن القبح والجمال ، أضف إلى ذلك كله صراحة علمية بريئة ، تحمله على الجهر بما يراه حقًا ، وقد جرى فى نقده مجريين :

١ — مجرى نقد المفردات وبعض العرباوات .

٢ — مجرى النقد الأدبى لبعض الآثار الأدبية ، شافعًا إياها بشىء من الآراء فى اللغة العربية والأدب (١) .

أما نقده اللغوى فقد صرف فى سبيله جهداً كبيراً لمسناه فى مجمل مجلاته التى قام على تدبيجها وتحبيرها ، فانتقد أباه وانتقد نفسه أيضًا ، وما أحرانا أن نميل إلى رأى الأستاذ فؤاد البستانى فنسمعه يقول : « كان واحداً من أولئك اللبنانيين الذين أدركوا أن الحرف يميت وأما الروح فيحيا ، وأن اللغة واسطة للتعبير لا غاية للتبحر ، وأنه مهما سهلت الواسطة ومرنت الأداة تجلى الفكر وبرز فى أروع صفاته . ولعل اليازجى — يعنى مترجمنا — كان أبعدهم مدى فى قدر هذه الحقيقة على تبحره فى اللغة وتعمق فى أصول اشتقاقها ، فسهل عليه أن يمهر النهضة العصرية بأداة صحيحة مرنة لها من التقاليد روعة القديم ، ومن الابتكار قشابة الحدوث ، أداة كانت تكون كافية لو أخذ الغير على هذه اللغة بالطريق التى سلكها اليازجى فقربوا التعبير من مجالى الحياة ، إذاً لما أفقنا اليوم بعد مرور نصف قرن على محاولات اليازجى فى بعث اللغة مجارية للعصر ، ونحن نكاد نصارع المشاكل نفسها حتى إذا قصر بنا التعبير تأففنا وقلنا : رحم الله الشيخ إبراهيم اليازجى » (٢) .

وأجمل ما نرى عنده من نقد أدبى تذييله لديوان المتنبى (٣) ، فقد حاول فيه أن يظهر علاقة التعبير بالمعنى فى شعر المتنبى فقال : « وما أرى هذا الكلام منه إلا صدى للمشهور وحكاية المتداول ، وإنما سبق السماع فيه الاختبار وغلب التقليد

---

(١) « تاريخ الأدب العربى » للأب حنا الفاخورى طبعة ثانية منقحة سنة ١٩٥٣ ص ١٠٨٣ مطبعة حريصا لبنان .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٨٤ . (٣) راجع المنتخبات .

على صادق الاعتبار ، وإلا فليس ما ذكره من دقة معانيه واختراعها هو العلة فى خفاء تلك المعانى بدليل أنك متى شرحت معنى البيت بما هو أبين من لفظه ، وبعبارة أخرى متى صورته باللفظ الذى حقه أن يصور به ، ذهب خفاؤه مهما كان دقيقاً ، وأشربه الفهم على غير كلفة ولا عناء . والمعانى الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية والقضايا العلمية التى تقتضى دقة نظر وجهد ذهن فى تفهمها ، وإنما هى معان طبيعية تدركها البداهة بأدنى رمز [1] ، ونراه فى شرحه لأبى الطيب قد عارض آراء النقاد القدماء فى تأويل بعض الأبيات العسرة الفهم وتتبع أخطاءهم ، من ذلك قوله فى معنى البيت :

وهب الملامة فى اللذاذة كالكرى مطـــرودةً بسهاده وبكائه

« وهو من مشكل الأبيات التى تتحير فى تأويلها أحلام المفسرين وتضلّ فى تركيبها بصائر المعربين . وقد أوغل شراح الديوان — أى ديوان المتنبي — فى الغوص على معناه فلم يصدروا عنه بغناء ، وركبوا فيه متن التصحيح فنزل بهم على أكتاف الخفاء . قال الواحدى رحمه الله ، قال ابن جنى [2] يقول : " اجعل ملامتك إياه فى التذاذها كالنوم فى لذاذته ، فاطردها عنه بما عنده من السهاد والبكاء ، أى لا تجمع عليه اللوم والسهاد والبكاء ، أى فكما أن السهاد والبكاء قد أزالا كراه فلتزل ملامتك إياه " . ورد عليه الواحدى وقال : " وهذا كلام من لم يفهم المعنى فظن زوال الكرى من العاشق وليس كما ظن ولكنه يقول للعاذل : هب أنك تستلذ الملامة كما تستلذ النوم وهو مطرود عنك بسهاد العاشق وبكائه فكذلك دع الملام فإنه ليس بألذ من النوم ، فإن جاز ألا تنام ، جاز ألا تعذل " .

ولا يحط بنا المطاف هنا بل نسير مع الشيخ فنرى كلفه باللغة العربية التى كلف بها وأحبها حبّاً جمّاً وانكب على تفهمها تفهماً رياضياً بفكر نير ورأى صائب ، فاستوعب ما فى المعاجم والآثار الأدبية وما خلفه غير واحد من أساطين

(١) تذييل « العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب » للشيخ ناصيف اليازجى ، المطبعة الأدبية بيروت ص ٦٥٤ .

(٢) الواحدى أحد شراح ديوان المتنبى . وابن جنى أحد علماء اللغة وله كتاب « الخصائص » .

اللغة والأدب الأقدمين من الأبحاث ، فتغلغل فى مطاوى عبقرية اللغة ، استجلى منها ما لم يسجل لأحد سواه ، فتفتحت بين يديه بكنوزها وأسرارها ، فتصدى لكلام العرب الأقحاح جاهليين وإسلاميين وقدماء ومحدثين ، وقوم من اعوجاج أخطائهم. وحمل حملة صادقة على ناشرى «لسان العرب» [١] « وتاج العروس» [٢]. وأشار إلى ما وقع فى ذينك المعجمين من الخطأ الفاضح ، فأرجعه إلى الصواب ، وعارض أيضًا الواضعين وذهب فى تبصره دقائق اللغة إلى أبعد مما ذهبا هما أنفسهما إليه .

ولم يقف الشيخ عند هذا الحد بل تخطاه إلى درس معانى الألفاظ وتراكيبها الأصلية ، وعلاقة أصوات الحروف بالمعانى التى ترمز إليها ، وثنائية الألفاظ وطرائق تفرعها ، مع ما يطرأ على الأصل من قلب وإبدال ، كما أنه بحث فى نشأة اللغة وقد ماشاها حتى بلغ بها إلى عصره . فوقف يستقرى ما يعترضها من معضلات جسام ، ويجدّ فى تذليل ما اعتورها من تلك المعضلات ليحفظها من خطر الهدم والاضمحلال ، ويجعلها فى مستوى سائر اللغات الحية ، كما يتضح ذلك من قراءة المنتخبات التى نثبتها فى آخر هذا الكتاب .

والناظر فى مجلدات « الضياء » يرى تلك المقالات الضافية التى عالج بها ما أشرنا إليه ، فنشر أمثالا من المستحدثات التى وضعها للدلالة على معانى ألفاظ أعجمية ، واصطلح على وضع علامات لمخارج الأصوات التى لا وجود لها فى العربية ليسهل على المترجمين الترجمة وكتابة الأعلام الفرنجية فى اللغة العربية.

وذكر لى الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف أنه وضع معجماً لغوياً بدأه سنة ١٨٧٠ م وسماه « الفرائد الحسان فى قلائد اللسان » ثم وقف عن متابعة تأليفه فى أثناء تنقيحه الكتاب المقدس ، فعاد إليه سنة ١٨٨١ م بإيعاز مجلة « المقتطف » لوضع معجم مدرسى حديث ، فحال دون إتمامه ازدحام الأعمال وتسارع المنية .

---

(١) هو معجم مطول ألفه ابن منظور توفى فى حدود سنة ١٣١١ م .

(٢) تأليف الإمام محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسنى الواسطى توفى سنة ١٧٩١ م

٧ ــ شهادة رجال عصره فيه

وإليك شهادة كبار أدباء عصره له ، وأول ما نبدأ به كلمة المرحوم الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى قال : « هو أكبر عالم لغوى فى العصر الحاضر ، واتفق له ما لا يتيسر إلا لقليل من اللغويين من قوة البيان وبراعة الإنشاء ، فهو فخر سوريا خاصة والعرب عامة ، ولو أن الله أبقاه للغة العربية لنالت فوق ما نالت على يده خيراً كثيراً »[١] وقال الدكتور شبلى الشميل العالم : « فضل الشيخ إبراهيم فى علوم اللغة وآدابها لا ينكر ، وإنما فضله الأكبر فى نظرى هو وضع حروف الطباعة ، فقد عمل لذلك عدة أجناس ، ومعظم الحروف الخارجة من معمل سركيس[٢] فى بيروت والمسماة باسمه والمنتشرة كثيراً فى المطابع العربية والأقطار السورية والمصرية والأميركانية هى من صنعه . . . وكان من المحافظين فى أمور اللغة فلا يحب أن يكثر فيها الدخيل من الألفاظ الأجنبية ، وكان يعانى مشقات كثيرة لوضع ألفاظ جديدة للمعانى العربية وكان يوفق إلى ذلك غالبًا . غير أن مسلكه هذا كمسلك المحافظين قبله وبعده حتى اليوم لا يعد بالحقيقة حرصًا على اللغة بل هو تضييق لدائرتها ، وهو فى العلم اليوم يعد تشريداً لكثرة المستنبطات الجديدة ، ووجوب وضع أسماء لها ، ولصعوبة إدراك مدلولاتها حينئذ فى اللغات المختلفة ، والمقتبسون لا يعدون من أصحاب البدع فقد جرى على ذلك أسلافهم فى الطب والعلم حتى العلوم الأدبية نفسها »[٣] .

وقال تلميذه شاعر القطرين خليل مطران : « راعنى الشيخ بكمال سيرته ورجاحة عقله وسعة معارفه وإحاطة خبرته بالناس ، فلزمته لزوم المتأدب والمريد زمنًا طويلاً ، ولا أبالغ بقولى إنه إذا كان الإنسان فى ظاهره وباطنه لا يخلو من العيوب ، فقد كان الشيخ من أقل الناس عيوبًا ، بل أقول ولا أبالى عاقبة التصريح على سمته ، إن كل ما تمنيت على الله أن يزيده فى مناقبه ومحامده هو

---

(١) « النفائس » ص ٢٦ .

(٢) هو المرحوم خليل سركيس صاحب جريدة « لسان الحال » ومؤسس المطبعة الأدبية ومسبك الحروف فى بيروت .

(٣) « النفائس » ص ٢٦ .

openkalam.com

خلة العفو ، فقد كان منتقماً لشرفه وشرف بيته ، ينتقم مدافعاً لا مبادئاً ، وإذا ضرب ضرب بتؤدة وتبصر ، ناظراً إلى المقاتل ، وقلما تصدى لخصم إلا تركه صريعاً جريحاً جرحاً مشفياً ، على أنه لم ينبر لأحد إلا عن عدل وحق »[1].

ويخلص شاعر القطرين إلى القول : « إن للشيخ مذهباً عاماً فى الشعر والنثر وسائر ما يتولاه وهو مذهب الإتقان ، لا يخاق جديداً ولكنه يتقن ما يصنعه إلى حد أنك تعزوه إليه وتعرفه بطباعه ، فلم ينظم مرتجلا ولم يكتب إلا محتفلاً ، وكان التحقيق فيه خلة لم تبلغ من باحث أو عالم مبلغها منه » .

هذه هى شهادة بعض رجال الأدب العربى فى الشيخ إبراهيم اليازجى ، وما قالوا فيه إلا بالذى قد علموه ورأوه منه مرأى العين ، وإذا كانت هذه شهادة الأهل — وهم ممن ليسوا على الشهادة بمتهمين — فإن شهادة الأجانب تحمل من الدلالة على الفضل والبعد عن التحيز ما يزكى شهادة القبيل والعشير . ولا نجد هنا أصدق ولا أدل على الحق من شهادة العالم المستشرق الإنجليزى الكبير مرجليوث أستاذ اللغة العربية فى جامعة أكسفورد ، فقد كان مهتماً بطبع كتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموى . وكان يدفع تجارب الطبع إلى علماء من العرب ليعاودوها بالنظر ويراجعوها بالفكر ، وكان فيمن دفعت إليهم التجارب المترجم له ، فكتب عنه المستشرق فى مقدمة الطبعة الأولى يقول : « وقد تولى قراءة النماذج " البروفات " علماء ثقات ، وحجج أثبات ، لا يسع الناشر غير الاعتراف بصنيعهم ، والإقرار بفضلهم ، وجليل خدمتهم ، فقد راجع نحو نصف الكتاب حضرة الشيخ إبراهيم اليازجى ، لعلمه الواسع ، ونظره المدقق ، وقد كانت وفاته فى ديسمبر الماضى — مصاب علماء العربية وطلاب دراستها فى الشرق بأسره ، ورددت أكثر صحف القاهرة ومجلاتها منعاه ، وأفاضت فى التنويه بمناقبه ، وتقدير فضله ومواهبه » .

فقد دلتنا هذه الشهادة — على ما بها من إيجاز — على أن الشيخ إبراهيم كان صاحب علم واسع ونظر مدقق ، كما كان مجيئها عقب منعاه دليلا على عظم

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨ .

المصاب فيه ، وكثرة الخسارة بموته ، مما جعل الصحف والمجلات تفيض فى الإشادة بمناقبه ، وتقدير مواهبه .

ونتبع هذه الشهادة بأخرى أدلى بها العلامة يوحنا ورتبات فى الحفل الذى أقيم ببيروت فى ١٣ مارس سنة ١٩٠٧ م لتأبين الفقيد ، فقد انتدب العلامة لرياسة الحفل ، فقام نائب عنه يتلو كلمته التى يقول فيها : «لم يكن لى معرفة كبيرة أو علاقة شديدة بالمرحوم الشيخ إبراهيم اليازجى الذى أقمتم لذكره هذا المأتم ، غير أن كل ما رأيته فيه أو سمعته عنه ، وقرأت مما كتبه يؤدى إلى اليقين أنه كان من كبار العلماء باللغة العربية وآدابها ، شاعراً مجيداً ، وكاتباً بليغاً . وأنه كان من أهل الفضل العظيم فى رفعة النفس ، وسلامة النية ، وطهارة الحياة . وكان – على ما بلغنى – مستغنياً عن الناس يختار عيشة البساطة والقناعة والفقر ، لايطلب ولا يرضى مساعدة أحد ، وإن مسرات حياته لم تكن فيما تطلبه العامة بل فى ما يجده العالم فى عالم العقل ، أى فى الدرس والتفكر والكتابة ، فهو جدير حقاً بهذه الذكرى التى الإكرام فيها له ولكم أيضاً » . وقد قال فيه الشيخ محيي الدين الخياط :

لغة العرب قد دعتك أباها ليس بدعاً فأنتَ إبراهيم

وفى البيت تورية ، فقد ورَّى بإبراهيم الخليل أبى الآباء .

٨ – منزلته فى عصره

من مجمل ما قدمنا نرى أن عظمة الشيخ ما قامت إلا على أنه صاحب رسالة آمن بها ، فوهب لها حياته بصدق وأمانة وإخلاص ، وآثر أن يعيش عيش الكفاف ضارباً كشحاً عن زخرف الدنيا والمصانعة ، غير ملتفت إلى مال أو غنى أو منصب أو جاه ، وقد حرص كل الحرص على [illegible] الرسالة ، باذلاً فى سبيلها راحته وصحته ، وقد هزئ بما اعتراه من داء [illegible] ف وهزال ، ولولا ما بذله من جهد وقدمه من تضحيات لما تهيأ لنهضتنا هذه و [illegible]قها من

openkandil.com

افترار ثغر وطريق معبد قام على تذليل صعابه بنفسه متفرداً معتصما بالصبر ، يسهر الجفن وراء شاردة ، فما تندّ عنه ، ويحيي النهار ناشراً وكاتباً ومعلماً ، فسهل حروف الطباعة وتخرج عليه أساتذة أعلام بثوا روح التقدم والعلم والمعرفة أمثال : نقلا وعبد الله البستانى وخليل مطران وغيرهم كثير ، ومن لم يتلمذ عليه حيًّا تتلمذ عليه ميتًا بما اختصره من كتب أبيه وبما نشره فى مجلاته ، وكفى أنه سار بالصحافة سيراً رفيعًا مطمئنًّا صادقًا ، فرفع قدر اللغة بعد انحطاط بإنشاء لبق لا يعتوره ركاكة ولا يتخلله تعقيد ، فكان فى طليعة الذين أسسوا النهضة ومشوا بها إلى الأمام ، وقد ترسم خطاه غير واحد من الكتاب والعلماء والشعراء .

وهو وإن لم يترك لنا آثاراً قلمية جمة فقد ترك لنا مصباحًا نستضىء به ونسلك الجدد فنأمن العثار ، فقد ألقى فى روعنا محبة البحث والتحقيق والتدقيق ، والحرص على لغتنا التى رفع منارها وأعلى شأنها وألحقها بأرقى اللغات الأوربية فى جميع العلوم العصرية ، فنبه الكتاب إلى وجوب انتقاء الكلمات العربية المحض وانتقد خطأهم اللغوى انتقاداً عنيفًا ، وانتقى كثيراً من الألفاظ الاصطلاحية للمخترعات الحديثة كالشارى لقضيب الصاعقة ، والمنطاد للبالون ، والبرق والبريد للتلغراف والبوسطة ، والبطاقة للكارت ، والجريدة للجورنال ، وما إلى غير ذلك من الألفاظ الجارية على ألسنة كثير من الأدباء .

إلى هنا نمسك القلم سائلين لمترجمنا الرحمة كفء إحسانه لنهضتنا ، وتدريبنا على سلوك النهج القويم فى المحافظة على أساليب العربية ، وقد غرس حبها فى صميمنا ، وعرفنا إلى رجال أعلام من أئمتها بفضل اصطناعه أمهات الحروف للمطابع التى توافرت لها مادة الطبع ، فأعطتنا من تراث الماضى ما كان مدفونًا فى الخزائن رهن الأرَضَة . وكان من رأيه رحمه الله ، أن مزاولة الإنشاء خير وسيلة لنشر العلم وتعميم اللغة الفصحى بين الناطقين بالضاد . ومن اطلاعنا على بعض نفثاته فى المختارات ، نرى أنه خاض عباب هذا الفنّ فبرّز فيه ، وجرى فى حلبة الصحافة فحاز قصب السبق ، ونرى من خلال دراستنا له أنه كان يؤثر المجلاّت العلمية على الجرائد السياسيّة ، فصرف إليها عنايته كما سنعرض لتبيانه فى الفصول الآتية ، وهى ممّا دبجته يراعته .

وخير ما نختتم به البحث قول شاعر القطرين خليل مطران فى حفلة رفع الستار عن تمثال الشيخ فى حفلة جمعت أكابر القوم من علماء ووجهاء فى بيروت سنة ١٩٢٤ قال :

ربَّ البيان وسيد القلم وفيت قسطك للعلى فنمِ

فعسى أن تكون دراستى هذه دافعاً يدفع المطالع الأديب إلى دراسة العربية دراسة صحيحة وافية لا تشينها رطانة ولا تعتورها ركاكة ، ويرى الفائدة المرجوة من المختارات النثرية والشعرية ، فأكون قد وفيت قسطاً ولو ضئيلاً من الوفاء لشيخنا وإمامنا إبراهيم بن ناصيف اليازجى ، ولا ريب أن فضله على اللغة العربية وأبنائها جم ، وعلى بعث النهضة عميم ، وعلى إحياء القومية العربية فى صميم الأفئدة عظيم .

إقامة تمثاله فى بيروت

قدرت الجالية اللبنانية والسورية فى البرازيل قدر شيخنا الإمام فأقرّت أن تجمع مبلغاً من المال تبذله فى سبيل إقامة تمثال من البرونز له فى بيروت ، فأتمت ما ارتأت .

ورأت بلدية بيروت أن خير مكان لإقامة ذلك النصب هو الطريق التى كان يسلكها الشيخ فى حياته ، الطريق المؤدية من البرج إلى الكلية البطريركيّة حيث كان يعلّم .

فكانت حفلة إقامة النصب سنة ١٩٢٤ اشتركت بها الحكومة اللبنانية والحكومة الفرنسية المنتدبة آنذاك على تدريب اللبنانيين على الحكم ، وقد تمّ جلاء الفرنسيين والجيوش الأجنبية سنة ١٩٤٣ بعد أن نال لبنان استقلاله التامّ واعترفت بذلك الدول الأجنبية والعربيّة .

وفى سنة ١٩٢٦ قال العلاّمة أحمد زكى باشا المصريّ لمّا جاء بيروت وزار تمثال مترجمنا ، وأهدى إليه إكليلاً من البرونز كتب عليه :

« إلى أكبر خادم للغة العربية من أصغر خادم لقومه » .

وفى سنة ١٩٥٦ نُقل تمثاله إلى قصر اليونسكو فى بيروت بحفلة اشتركت فيها الحكومة اللبنانية وجمهرة من كبار الأدباء والشعراء تخليداً لذكراه وأدبه وعامه .

obeikandl.com